حـديـث شـاعـر

محمـد الحبيب الفرقـانـي

١ ـ الشعر بحد ذاته ـ كفن تعبيري ـ ظاهرة اجتماعية عميقة الدلالة في المستوى الفكري والسوسيو ـ ثقافي على العموم ، ولان الشعر يرتبط أصلا بمواقع التعبير الفني عن هموم الانسان ومشاغله وأدق خوالجه ، مثلما يرتبط بحركاته الفكرية والوجدانية ـ الانفعالية ازاء الكون والانسان والحياة ... فان جدليته مع هذه كلها تدخل في طبيعة وجوده ، وفي صلب مهمته كضرورة فنية ـ انسانية للتعبير والاداء ، وضمن هذه الجدلية لا يمكن أن يكون الشعر ـ بخاصيته تلك ـ الا ظاهرة من أهم الظواهر في الحياة الفكرية والوجدانية للانسان .

ومن هذا الموقع لا بد أن الشعر ـ ككل الفنون التعبيرية ـ يؤشر الى المجتمع بكلياته النفسية والاجتماعية ، لانه ـ مهما يكن ـ ثمرة نبتت من تربته ، ولابد أنه ـ أى الشعر ـ بتركيبه ونسائجه الذاتية ، ومن خلالها يحمل بصمات المجتمع وخصائصه ، وينطبع بمشاكله وقضاياه ، سواء كان ذلك بتقصد سابق ، وبشكل مباشر واضح ، أو كان بغموض والتواء ودون قصد ولا مباشرة .

كان الشعر تقدميا مفتوحا ،، شعر الرؤية الواضحة ، والوعي المتنور . والاستشفاف المستقبلي المشرق ، أم كان رجعيا منغلقا ،، شعر الضباب والتخاذل والمنافقة والنكوص ... فانه يعبر عن نفسه ، وحتما ـ في نفس الآن ـ عن التربة التي أخرجته ، وعن مجموع الشروط الاجتماعية والفكرية والسياسية التي أثمرته على هذا النحو أو ذاك .

ومجموعة « نجوم في يدي » من هذه الزاوية ظاهرة اجتماعية أكيدة ، ربما لانها متلائمة ـ حاضرة الى حد كبير مع لحظتها التاريخية ، ومع الشروط الاجتماعية والسياسية التي نبعت منها ، والتي عانى منها المجتمع ، وواجه المحن والشدائد ، رغبة في تحسينها أو التحرر منها طيلة الخمسينات والستينات .

وأيا ما كان الحال فان الطموحات المشروعة والكبرى التي ظلت تلهب

حماس وأشواق الجماهير المغربية وتلقي بها استمرارا الى أتون من الصراعات التحريرية الواسعة ، سواء قبل الاستقلال أو بعده ... كان لا بد أن تتحرك أدوات الفنون التعبيرية الى جانبها ، وأن تجد العواطف المكبوتة في صدور الجماهير صورتها وأصداءها ، بل ورسالتها ـ بشكل أو بآخر ـ في الادب والفن ، خاصة منها الاغنية الشعبية والشعر . فالاغنية (الاجتماعي الاصيل والصادق منها لا العاطفي) قد انطلقت من أعماق المطامح والارادة المستكنة في ضمير الجموع الشعبية في تلقائية فردية أو جماعية ، وكثيرا ما ترددت أغنيات شعبية في أعماق الاطلس ومناطق الجنوب ، وأحيانا في شوارع المدن ، فحركت في عفويتها الاحساس، وأثارت الدوافع والتعاليق ـ وتحت وطأة الرقابة ورغما عنها ـ فجاءت أصفى محتوى وأصدق تعبيرا ، وأقوى في دلالتها الاجتماعية والسياسية ، كأداة تعبير فني ، واتصال مباشر أصيل عن طريق الكلمة المقترنة بالايقاع الموسيقي المباشر كذلك ، ولهذا كثيرا ما كانت هذه الأغنيات الشعبية وأصحابها موضوع قمع ومصادرة واضطهاد بما تحمل بساطتها وعفويتها من قوة تأثير قبل « الاستقلال » و « بعده » .

ولئن كان الشعر من جهته أيضا قد تحول قسم هام منه في حماة الانهزامية والنكوص ، وذهب يجتر المباخر بين أقدام فئات التسلط والاستغلال من الاجانب أو « الوطنيين » يعانق أشياءها ، ويقذف بقوافيه الى مرامي ابصارها المحدودة بعرق وخبز الآخرين ... فان لمجتمع المقهورين ومطامحهم من جهة أخرى ـ وبالمقابل ـ شعره المتفتح والطموح في اتجاه المستقبل الذي يندى بعطر هذه المطامح ، والذي يخرج من بين فرث ودم ، ليخترق جدار الصمت الادبي ، ناعيا هزيمة « الادب » ومدينا تخاذلية الادباء ، ومنتصبا مآذن في محاني المجتمع ترتفع فوقها مشاعل الوعي ، تنير الطريق ، وتثير مكامن الوجدان الشريف لدى الجماهير ، دافعة بوعيهم نحو التحرر والانعتاق.

ولو أن هذه الشعر الاجتماعي المناضل أقل كمية ـ بالقياس الى الاكوام المتكومة من أشعار النفاق والمناسبات والخصوصيات العاطفية ـ فانه أعظم كيفا ، وأشرق معنى ، وبالتالي أسمى محتوى وهدفا ، وأجمل فنا ، وأكمل صورة .. ويأخذ هذا الشعر مكانته في الفاعلية والعمق حينما يكون يرتبط في تفاعل بصلب حركية المجتمع ، وأعمق وأوضح رؤية لهمومه ومشاكله وأشواقه، وحينما يكون في المحتوى الوجداني وليد ارتباط عضوي بواقع نضالات المجتمع وقضاياه المشروعة .

وفي مرحلة التحولات التي امتخضت بها من المحيط الشعبي ظروف ما بعد « الاستقلال » وما واكبها من تغير شامل في أوضاع المجتمع .. كان الشعر المغربي أيضا قد أخذ في ظل هذه التحولات وظروفها نصيبه من التحول والتغير ، وانخرط بوجه أو بآخر ـ قسم منه على الاقل ـ في مجمل الصراعات التي دارت ضمن هذه التحولات مثلما انغمر من جهة أخرى في مختلف التيارات

الادبية والاتجاهات الفكرية التي اقتحمت محيطنا الادبي والفكري ، وتأثرت بها بصفة أو بأخرى والى حد قوي أو ضعيف .

وفي هذا الاطار لا يبعد أن تكون مجموعة « نجوم في يدي » قد وقعت موقعا خاصا من هذه التحولات النضالية العميقة في مجتمعنا ، يشبه أن يكون جسر ا ـ أو شبه جسر ـ بين مرحلتين من تطور شعرنا القومي وتفتحه على مطامح الجماهير وصراعاتها منذ ما بعد « الاستقلال » والى نهاية الستينات .

وقد تكون المجموعة بتصوراتها وأخيلتها وبنوعيتها في الاداء الفني ، ربما تقمصت ـ أو حاولت أن تتقمص ـ من هموم الشعب وقضاياه ، قد أرهصت عمليا ، بالقصيدة الشعرية الموعودة في أدبنا المغربي المعاصر ، تلك التي يجب أن تكون رائدة الاستقطاب الشعبي في ملاهب الصراع التحرري الدائر... على أن النقد الادبي السليم هو وحده الذي يملك أن يفصل بموضوعية وصرامة في تحديد موقع مجموعة « نجوم في يدي » من المرحلة التاريخية التي واكبتها، وفي تقييم دورها في غمرة التحولات الفكرية والادبية والسياسية التي شهدتها تلك المرحلة ، وما اذا كانت فعلا جسرا لتجاوز المرحلة أو ارهاصا أو دعوة الى الآتي الموعود .. أو شيئا .، أو محاولة من هذا القبيل .

2 ـ اما أن الشعر ـ بناء وتركيبا ، شكلا ومضمونا ـ نتيجة مخاض يتواكب فيه مع التحركات التاريخية والتمخضات المجتمعية التي تهزه من جميع نواحيه ـ فامر لا شك فيه ، لان الشعر اذا لم يكن كذلك كان عملا هامشيا وبلا جذور واقعية ، وهذا بالتأكيد هو الحد الفاصل بين شعر يدخل التاريخ ويرتبط به لانه ينبع من موقع القوة في التاريخ ، ويقف فيه ، وشعر يتسكع على الابواب ، لا يدخل بيتا ولا تربة ، ولا يمارس الحياة الا من وجهها الفارغ النشوان ، بعيدا عن المهاريز التي تندق فيها أعناق التاريخ وتهشم ضلوع الحياة نفسها .

ان التحول الذي عرفه انتاجي الشعري أواخر الستينات ، وبصفة أوضح أوائل السبعينات هو أمر واقع وطبيعي أو ان شئت ضروري ، أما أن هذا التحول المستجد نتيجة مخاض أم امتداد ؟ أم تجريب في كتابة القصيدة ؟ أم هو قناعة انتهيت اليها عن طريق الطفرة ؟.... فان الواقع فيما أحس أن التطور الذي حصل في منتوجي الشعري في الفترة المذكورة ، هو ثمرة هذه الاشياء كلها، وثمرة اشياء أكثر من ذلك ، ان الاحداث التي تلاحقت ونالت الكثير من حياة مجتمعنا الاقتصادية والسياسية ، لا يمكن أن يكون الشعر في تطوره بمعزل عنها ،، ذاك ـ وأنا أعيش الحدث ـ أو ان استبطنه من الداخل فاتركه يدور في مسارب نفسي ، ثم يمضي يتحول في أعماقها متقمصا من رؤاها وتصوراتها الوجدانية ما يشاء .. دون حضور وعي محدد أو تقرير مسبق ، حتى اذا اكتملت الجولة واختمرت الصورة أحسست عندئذ أن شيئا ما في داخلي يتحرك ، يريد أن يخرج ، أن يعبر عن ذاته ، أن يعبر الى الآخرين لينبئهم بما استخلص من

وعي ، ثم يأتي النص على تواتر متلاحق ، أحيانا بقليل من الجهد ، وأحيانا كثيرة بمعاناة ومصابرة، وفي كلتا الحالتين ـ كما قلت لصديق لي وأنا اداعبه ـ انني في حالة انغمار في التجربة الشعرية ، وفي التخريج الشعري أصبح كالدجاجة حينما تحس أن شيئا ما قد تخلق واستوى تكوينه في بطنها .. فهي حينذاك لا تزال تتوجع وتصيح ، وتنتقل من ركن الى آخر ، تبحث عن اللحظة والمكان اللذين تتخلص فيهما مما يثقلها ويؤلم دواخلها ، حتى اذا آن الاوان تخلصت من « البيضة والقت بها واستراحت » وكذلك أستريح ، وأشعر بغبطة داخلية حينما اتخلص من مشاعري الداخلية وأنا القي بها في قطعة شعرية بعد مغامرة عنيفة مع نفسي ومع عوالمي الداخلية الخاصة .

هذه واحدة ، أما عن الشكل الجديد لقصائدي الاخيرة ، فانه لا يعني بالنسبة لي « الطلاق النهائي » للاطار الاتباعي ـ الشكل العمودي القديم ـ بالمعنى الحرفي للشكل ... ذلك أن لتجديد الشعر عندي مفهوما خاصا : فالتجديد حقا عملية يجب أن تتناول ـ في آن واحد ـ الرؤية والتصور والتصوير مثلما تتناول ـ بنفس المقدار ـ اللغة « الاداة » والمحتوى والشكل « الهيكل الادائي » . غير أنه في جميع هذه الاشياء يجب أن يكون تجديدا ـ أي اندغاما في الحياة بكل معطياتها التي لا تنفك عن التجدد المستمر ـ لا تسلخا وتحللا من كل شيء ، واحيانا كثيرة من الحياة نفسها ... يجب أن يكون التجديد قبل كل شيء ملامسة مباشرة للحياة من واقعها النابض واندماجا وجدانيا في الصورة وتجسيدا حيا للاحساس بها ، وليس التجديد بحال ـ تفكيكا متخلخلا للصورة كما ليس ـ ولا يجوز أن يكون ـ الشعر المجدد نتفا مخلوعة من الضباب ، تائهة في الفضاء لا يكاد يمسك بشيء منها لا فكر ولا وجدان ... ولهذا يظل التجديد في حقيقته الاصلية مشروطا بثلاثة شروط أساسية :

1 ـ لا بد من توافر مستوى أدنى من الموسيقى والجرس المتناغم ... والموسيقى في الشعر هي ثمرة تناغم عضوي بين الكلمات وشحناتها في مزاوجة فنية بين موقع الكلمة ومدلولها ، بين المعنى والايماءة ـ الرمزية في الصورة أو اللمحة فيها ـ وهذه الموسيقى هي وحدها مفتاح السحر والغزو الوجداني في القصيدة .. والا فقدت معناها كشعر وبقيت كلاما ميتا كالتراب .

2 ـ شفافية الرؤية ، وصدق الاحساس وهما أمران يترتب ثانيهما عن أولهما ، ويكونان معا أداة الفهم والاندماج في الحدث والصورة والانغمار في معناها الى ابعد الحدود .

3 ـ مستوى من السمو والطرافة في أسلوب التناول ـ تناول الصورة وأدائها وعرضها على المتلقي .

واذا توافرت هذه الشروط للقصيدة الشعرية ـ ولو في مستواها الادنى ـ تكاملت لها أركان التعبير الشعري ، وكانت شعرا بصرف النظر عن التزامها بهذا الوزن او ذاك او بعدة أوزان أو عدة قوافي ، أو دون التزام بوزن معين ،

وعندئذ يبقى الفارق بين العمودي واللاعمودي في الشعر فارقا شكليا (كم من شعر « جديد » هو في الحقيقة عمودي مشوه) ، يتحكم في تقييمه وتقديره مجموعة من المكونات الفنية والذوقية لدى القارىء ...

لذلك ستجد منتوجي الشعري الاخير حتى وهو ينهج النهج اللاعمودي لم يتخلص نهائيا من الوزن والقافية او على الاقل ــ من المستوى الضروري منهما للمحافظة على الحد الادنى من موسيقى الشعر ، ونغمته الرتيبة والمتواترة، فهو يتدرج في المزاوجة بين عدة أوزان خفيفة او مجزوءة ، وعدة قوافي ، وأحيانا قوافي متغايرة ، بشكل قد لا يثير الانتباه الى أن هناك قافية ... ولكن لا بد أن هناك خطا فكريا يتألف من مجموعة من القيم الايديولوجية والاجتماعية هي المحيط ــ أو الافق العام الذي يدور فيه انتاجي الشعري القديم منه والحديث ــ العمودي واللاعمودي على اعتبار أن الفكر الشعري هو الدعامة التي لا يقوم شعر تقدمي محترم بدونها ، أما حينما يكون الشعر « خلبطة » كلامية ، ومقاطع « تلغرافية » . وألفاظا ملتقطة لا تنظمها فكرة ــ رؤية ، ولا يشدها الى بعضها وجدان واضح ، فهو عندئذ تعبير عن ضياعه وضياع صاحبه ، قبل ان يدل على شيء آخر ، تاكيدا على أنه يمكن أن يكون أي شيء الا الشعر .

3 ــ البصمات الشرقية والظلال الوجدانية ــ لا اللغوية ــ في التصوير والاداء لبعض الشعراء الشرقيين حقيقة واقعة في شعري ذاك اني :

أولا : مدين لثلاثة أجيال من الشعراء المشارقة : جيل الرصافي والزهاوي والكاظمي والبارودي وحافظ ابراهيم ــ وجيل محمود علي طه المهندس وجبرا وفدوى طوقان وابراهيم طوقان والشابي وسليمان العيسى والجواهري ــ وجيل السياب وعبد المعطي حجازي والفيتوري والبياتي ودرويش وأدونيس وسميح القاسم وغيرهــم ...

وثانيا : معجب على الخصوص بالبياتي وسليمان العيسى والفيتورى وعبد الصبور والشعراء الفلسطينيين الشباب .

لقد قرأت لهؤلاء جميعا ما وسعني الامر وتأثرت بتجاربهم الشعرية ، ولم أشعر الا وأنا مغمور بالانفاس التقدمية تملأ صدري من أشعارهم وباشعاعات التحرير تملأني من قصائدهم حرارة وأشواقا ... انها روافد ارادة التحرير كانت تصب من مواجدهم اللاهبة في قلبي ، فكنت أجد لها طعم الحلاوة الروحية في أعماقي ، وكنت أقرأ فيها مشاعل التحرر والامل العربيين لا تفتأ ترسل أنوارها على محاني الطريق ــ كانت هذه بالضبط هي نقطة الالتقاء ومحور التفاعــل باشعار هؤلاء الذين تحدثوا للانسان العربي لاول مرة عن طموحه وهمومه بشكل واضح وحار ... وأعتقد أن من حقي ــ بل من واجبي ان افعل ذلك ، فالشاعر في ابداعه أشبه شيء بمعدة الانسان ــ في عمليتها البيولوجية ــ التي يحملها بين جنبيه ، فكما تتلقى هذه ــ في عمليتها البيولوجية ــ مختلف الاغذية والمواد والاطعمة ، ثم تسلط عليها مختلف الاحماض و « الانزيمات » التي تنتجها هي

في مراحل معينة ، حتى اذا تحللت تلك الاغذية الى عناصرها الاولية أصبحت عندئذ ـ في حالتها الكيماوية المحللة ـ قابلة للتمثل الغذائي فتتحول الى ـ مع الدم الى خلايا الجسم لتمده بالحرارة والطاقة والبناء ـ وهي أشياء أخرى غير ما كانت حين ورودها على المعدة ... ـ كذلك يتلقى الشاعر مختلف الاغذية الفكرية والروحية ، ولكن مواهبه وقدراته الفكرية والنفسية ـ الانزيمات ـ تحللها الى عناصرها الكيميائية الاولى وتفكك تركيباتها السابقة ثم تتمثلها آنئذ غذاء شهيا للفكر والوجدان ثم تخرجها للناس صنعا جديدا وتكوينا بديعا في عالم الفن ، ومخاطبة الحس الدفين واثارة متلاحقة لاسمى ما في الانسان من قيم وسمو ومعنى وطاقة دافعة للانسان دائما نحو التطور والتحرر .

4 ـ يكون الحرمان الفكري في السجن عذابا أشد ايلاما من الحرمان المادي أو الجسدي ، وحينما يكتب لانسان يملك قدرا من الوعي والاحساس أن يدخل السجن وتحتضنه جدرانه وقضبانه ـ ترتج عندئذ احساساته الفكرية ووجدانه ، وتمر أمامه آلاف الصور المؤلمة فتزيد من محنته وتلقي به الى أتون غربة مثلثة الاوجه :

غربة في مجتمع « السجناء » وغربة عن أهله ومجتمعه وغربة عن مجال النمو الفكري والحياة العقلية (!) .

الحياة بكل جوانبها الفكرية والفنية في تطور مستمر ونمو صاعد ومتابعة هذا النمو من جانب كل من يعتبر نفسه عضوا فاعلا في هذه الحياة ضرورة ملحة وتشتد هذه الضرورة ويرتفع ثقلها اذا كان الامر يتعلق بشاعر أو فنان، لان المفروض في هذين أن يتمثلا الحياة في آخر صورها وتطوراتها ليتمكنا من ترسم ابعادها الى المستقبل ، والذي لا ينمو ولا يتطور فكره وفنه يجمد ويرتد الى الوراء ويعجز عن متابعة الحياة ومعايشتها في تخلف وارتداد واجترار نفسه وأوجاعه .

أما بالنسبة الي فقد كنت أجد نفسي ـ بحكم الضرورة ـ تعيش ـ ولا تملك أن تعيش الا ـ مع المخزونات الفكرية السابقة ، ومع الركام والذكريات الادبية المترسبة في الحنايا ، وكان القليل الاقل الذي تسمح به الرقابة من الكتب والمجلات ، وتسمح به ايضا الامكانات المادية الهزيلة للعائلة (!) هو الكوة الوحيدة التي قد أتنسم منها بعض النسائم الفكرية الجارية خارج القضبان ولذلك ، وتحت وطأة الجوع الفكري والروحي الذي يأخذ بالخناق بعد كل بضعة أشهر ، كنت التهم بشغف كل ما تسمح الرقابة له ان يجتاز القضبان الى ، بل كنت أقرأه بـ « القراءات السبع » من ظهر لبطن ، ومن فوق لتحت .. الكلمات .. السطور ،، الارقام ،، الطرات ،، فما فوقها وما تحتها .. وما بين مساحاتها الفاصلة ، لانها مهما يكن محتواها الفكري أو الادبي فهي رسالة العالم الخارجي وصورة من صوره الفكرية ولو على رؤية معينة في مرحلة زمانية معينة .. صدقني حتى عناوين الدور والمؤسسات التجارية واشهاراتها

لها أهمية بالغة في ظروف القطيعة والانعزال مثلما لها دلالات لا تعزب عن البال .

لقد كان شيء ينقصني في فكري ، ويترك فراغا في دخيلتي ، وكنت أحس بفراغ أعجز عن ملئه ، مثلما أحس أنني ابتعد شهرا فشهرا ، وسنة فأخرى ، عن مجتمعي وانفصل عن ملاحقة التطور الفكري والادبي الذي لا يفتأ يغمره ، وكنت استشف القليل الاقل الذي ينفذ الي فأرى فيه قطرات ضوء وسط القضبان ، غير أني أغوص في هذه القطرات ، وأرى فيها بحيرات ضياء أسبح فيها ـ في جوانبها وأكتشف كل ما استطيع اكتشافه وأحولها الى تلسكوبات عسى أن أتعرف على شيء وراء الابعاد ووراء الحواجز والحدود . ولعل هذا هو التعويض الوحيد الذي استطيعه ولا أستطيع اكثر منه في هذه الحالة ... والواقع أنه يصبح للمقروءات ـ بل لكل الواردات على السجين من الخارج مذاق حلو ، ومعنى خاص ودلالات واسعة ، يضخمها الخيال والاشواق المحرقة أضعافا مضاعفة وتضفي عليها آلام الكبت ورغبات الاستطلاع والمعرفة الوانا خاصة من الجاذبية والشحنات النفسية الخارقة ! .. على أني وجدت أن أصداء ما لبعض ما قرأت خاصة عن عبد الوهاب البياتي وأحمد عبد المعطي حجازي قد تسربت الى مناطق نائية من نفسي ، وألقت بظلالها في بعض منتوجي لهذه المرحلة ، مثلما ألقت المرحلة نفسها بكامل ثقلها وألوانها الداكنة على شعري « بين القضبان » فجاء هذا الشعر ـ ولا شك ـ معمدا برائحة « الكاشو » والساحة المحجوزة والحراس .. أو مكسور الرؤية ، فاقدا جناح المعرفة الكاملة للتحليق والاسفار البعيدة ، على أن الخيال والجموح الروحي المكتنز يظلان على الدوام ـ وفي كل الحالات ـ مصدرا غنيا للاثراء والتعويض

5 ـ تظل الورود في أكمامها ورودا بالقوة أو في حكم الورود ، ولا تملك وجودها وفعاليتها الا اذا تفتحت على العالم الخارجي وبرزت بتشكيلها وألوانها، وتقدمت الى معانقة الحياة بجمالها وطيبها ، وتقديم صورة فنية رائعة وجذابة عن هذه الحياة .. أي ممارسة الحياة من وجهها الهندسي الجميل ومن زاوية الفعل والانفعال فيها ... كذلك يظل الشعر فعلا ذاتيا ، غارقا في بحيرة من عدم ، لا يمارس وجوده ومهمته الا يوم يخرج من عدميته الذاتية وينطلق الى الآخرين ، ليحقق في معانقتهم هذا الوجود ، ويؤدي مهمته التاريخية التي وحدها تبرر الكينونة والمعانقة ... ولذلك ستخترق المجموعة الشعرية الثانية جدار الصمت عما قريب وستخرج من سجنها الثاني الذي تفرضه عليها قلة أو انعدام الامكانيات والوسائل وستعرض نفسها عما قريب ، وتترك صورها وملامحها تتحدث عن هذه الخصائص ، وتنقل بعضها من ظلال المرحلة التي انتجتها ، وسيتمكن كل راغب آنئذ من ملامسة التجربة السجنية في عين النصوص ـ ومن خلالها ، ومن استخلاص الصورة التي يدركها في عين المكان.

6 ـ المباشرية ـ أو التعبير* المباشر عن الصورة ، وعن الاحساس الداخلي بعواملها ، هي الطريقة المثلى ـ والعادية في نفس الآن ـ للأداء والاتصال

بالعالم الخارجي وبالآخرين ، ولاشراكهم في الاندماج المباشر في الحدث ، واقحامهم في صورته الحية كما هي في حركتها وفاعليتها على الطبيعة دون مزايدات أو مداورات لفظية .. طريقة مثلى لانها بخصوصيتها المباشرية في التعبير تعمل متحررة من كل الضغوط الخارجية لاخضاع التعبير الفني للمداورة والالتواء الترميزي المغلق في الاداء الحركي والفاعل للصورة ... لكن المباشرية في الاداء التعبيري لا تعني بحال التصوير الآلي ـ الفوتوغرافي ، ولا تلغي الهرمون الموسيقي والتركيب الفني الضروريين للقصيدة ـ الشعر ، والا التحقت بالصنف العادي من الكلام .

واعتقد أن الامعان في التهويم والابهام والاسراف في الترميز والتغميض والتعقيدات الملتوية .. انما هي جميعا ظاهرة تولدت تحت عوامل الاستلاب والخوف والقهر والكبت والتسلط ـ التي هي ميزات العصر وخصائصه السائدة والظاهرة في عمومها ـ من الوجهة العملية ـ تحمل هروبا فنيا « تكتيكيا » من المواجهة ونوعا من المداورة في تحمل المسؤولية ، واختراق الحواجز وتبسيط الاتصال .

واذا جاءت بعض قصائدي على النمط المباشري ـ كما لاحظتم ـ فلعلها استجابة عفوية لرغبة داخلية لا واعية ، تريد المواجهة المباشرة مع الحدث والصورة من الداخل ـ والى الخارج ، رغبة لا تحكمها قوانين التصرف الواعي عند ارادة البناء الفني للحركة والصورة ، ونقلهما الى الخارج ، وقد يكون في الامر أيضا ضرورة داخلية ، واستجابة لدواعي ذاتية فوق الامكان ، التحلل منها ، فرضتها ظروف « المغامرة الحياتية » التي هي أيضا ـ بطبيعة الاحداث، وحكم الموقع ـ مغامرة مباشرة في قلب الحياة ، من الطبيعي أن تنتج ـ في حالة صفو نفسي ـ أداء مباشرا عنها ، وتصويرا ملتصقا بها من الداخل والخارج سواء .

وفي كل الاحوال تظل التعبيرة المباشرة في الاداء الفني اقرب الى الصدق، والصق بأرضية الحدث وحرارة الاحساس والعيش فيه ، فوق أنه ـ ان خرج سليما ناضجا ـ أداء متحرر من كل الضغوط الداخلية والالتواءات الخارجية ، ولا بد في حالة كهذه انه أداء فني حر عن أصالة احساس داخلي حر .

7 ـ القصيدة هم شعري وشعوري واشعاري معا وحينما لا تكون القصيدة هما ، وصادرة عن هم تمسي مجرد تسلية وتزجية للكلمات ... مجرد اهدار لطاقة الفن وكرامة الاحساس ..

الهموم والعذابات ، هي قدرنا في هذا العالم الذي نغرق في شجونه وقضاياه ، هي مصاهرنا التي تأكل بين حناياها أحشاؤنا ، لتنفض عنها أوساخ الحيوانية والذاتية ، وتمزق الفاف الانغلاق الذاتي المتزمت ، وتنصاغ منها في نهاية الحرائق كائنات ـ مصوغات* انسانية تحقق السمو والحب والعدل والجمال بين الناس .

رسالة الحياة هي همومها ، ورسالتنا في هذه الهموم ـ لا في احتمالها فحسب بصبر وصمت وسلبية ، بل في تحويلها الى طاقة حركية في نفوسنا وفي مجتمعنا ، للابداع والتغيير في الحياة ، في انتزاع المعاني الانسانية الكبرى من هذه الهموم ، من مشاكل الحياة وتعقيداتها وضائقاتها الصاعقة، ثم توظيفها مع الانسان لتحرير وتطوير بناء نفس الانسان .

وهمومي التي ارتفقها ، وأنا أمارس كتابة القصيدة ـ الهم ، هي بطبيعة الحال الايمان الداخلي والموقع الفكري والاجتماعي ، هموم المحيط الاجتماعي والسياسي الذي أتغور فيه ما اتغور ، وأدرك من مكامنه ما أدرك ، وأتملى في أفقه وأمتد ما وسع التملي والامتداد ، وأجد نفسي في نطاقه مع ذلك كله حبيس الامكان ، محدود الطاقة ، فلا أمتلك الا القضبان تشدني اليها شدا ... تركم على الظهر اضافات أخرى من الهموم المباشرة الحادة والمتعنتة ، لا لتمسح الهموم والاشجان الرابضة على قلبي ، ولا لتطردني من صراعاتي مع نفسي ومع الآخرين ومن أجل الآخرين ، وتعزلني عن الصراعات اللاهبة في قافلة الحياة ، ولكن لتفتح في نفسي افقا أرحب ، وتصب في صدري مددا انسانيا أغنى ، وتمنحني في مضاربه الواسعة هما أكبر .

الانسان يولد وهو يتألم ، والآلام وحدها تدفعه الى تحرره الفيزيائي الاول كدرس أول في التحرر ، يخرج الى عالم كبير ليستقبل في رحابه هموما أكبر ، فاما كان شريفا متساميا في مواجهتها فعاش انسانا في مستوى أمله ورسالته ، واما هوى فيها وتهاوت به الى الضعف والتخبط ، فكان دون نفسه، ودون همومه الانسانية ... وهكذا كلما كبر الانسان، وكبر عالمه وأفقه، كبرت همومه وقضاياه وتعاظمت مسؤوليته وشرفه النفسي بتعاظم وعيه ... يمكن أن تبقى الهموم الانسانية ـ مهما سمت وعظمت ـ ركاما مهملا ، وكما سلبيا ، يتضاعف على نفسه في غيبوبة متشنجة ، ويبقى الوعي بالهموم وقضايا الانسان المعذب مناط اليقظة والحركة في وجود الانسان ومركز المسؤولية والمواجهة في مصارعة الهموم وتحدياتها الخارقة .

وقديما استخلص أبو الطيب المتنبي هذه الحقيقة من تجاربه الخاصة مع طموحات وهموم الانسان ، ومقياس وزنها ، فردد :

« ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم »

وقلب القصيدة على وجهها الآخر فأنشد :

« على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر العظيم العظائم . »

ومن اعماق همومه ، وبين جدران سجنه ، كتب أوسكار وايلد الانجليزي، يقول :

« من لم ياكل خبزه في الأسى ، ولم يبت ليالية باكيا يجرع الالم ،

ينتفض من وخز المآسي والمضايق المحدقة به ، وهو لم يزحف بآماله وآلامه في الظلمات طاويا يترقب الصبح لا يعرفنك أيتها القوة السماوية . »

وأفسر القوى السماوية هنا ـ نيابة عن أوسكار وايلد ـ بعبرة الممارسة وقوانين الحياة ، وبالدروس التي تؤتيها ملاهب الصراع الدائر في الحياة .

8 ـ المدن التي قررت الرحلة اليها منذ زمان ، هي ثلاثة من النجوم السيارة ، المتواكبة في قافلة المجموعة الشمسية التي يتوق اليها ويستدفيء ويستنير بها ، ويعيش الانسان .

نجمات ثلاث ، من مهوى طموحي ، ومشد ارادتي ، ومركز تعاملي مع الحياة كلها ... كل واحدة منهن تحمل عالما بذاته ، وتجسم السبيل المعبد الى الشمس ـ المستقبل ، والدرب المضيء الى الفضاء العلوي المطلق ، وتقود الى المستقبل الانساني الريان ...

النجمة الاولى : اسمها حرية ، يتخلص بها الانسان من عقد الكبت والخوف ويتحرر من كوابيس القهر والتسلط ، ويعيش آمنا على نفسه .. على ارادته ـ ينطلق ملء هذه النفس والارادة ليتفجر بينهما في شخصية الانسان الحر .

النجمة الثانية : ديمقراطية ، تؤمن له مجال العمل والتفكير والحركة والعيش سويا ، في معادلة شاملة وصارمة مع الآخرين ، لتتفجر امكاناته الداخلية ، ومواهبه ... نموا وتكاملا وسموا في نفسه وفي الآخرين .

النجمة الثالثة : اشتراكية .. تتوحد بها قوى العمل بمنتوج العمل ومردود الطاقة ، وتتداخل كلها في توارد جماعي متواز ، واستفادة متكافئة ، لتسير في نطاقها المجموعات الانسانية كلها مسيرة واحدة متكافئة ، في العمل والانتاج والعيش ـ والطلاقة الحرة المبدعة ... تقرر كلها ، وتعمل كلها ، وتسير كلها بمسؤولية واحدة ، وتضامن مشترك ، نحو مصير مشترك .

نجمات ثلاث .. من المدن التي أمضي اليها في رحلة طويلة وعنيفة ، وأنا اتخذ اشاراتها الضوئية دليلا لي في مجاهل الطريق ، وأترصد مشعاتها في بهرة ظلام الليل ، أتقطر فيها لروحي غذاء ، ولقدمي حذاء ألطم به وجه الاشواك ، وأتوثب فوق الحفر والمعاثر ، وفي أحشاء الغابات ... ولكنها نجمات في السماء وأنا انسان في الارض !

كيف التعامل ؟ كيف اللقاء ؟ كيف .... ؟

قد يكون الغزل بصباحتها ولألائها وحركاتها الرشيقة ـ ولو من الارض ـ فيه عزاء ، وفيه تسلية للعاشق الحزين الراحل ، ولكنه ـ في حدود الغزل ـ لا يتيح لقاء ، ولا يقرر تعاملا ..

كيف اذن ... ؟

الانسان انسان بما فيه من خصائص المغامرة والمثابرة وتقبل التضحيات .. واجد طموحاته المشروعة بما يلزمها من مسؤولية وتحمل ..

طموحات في الارض .. طموحات في السماء ـ بروح من المغامرة والتحدي والصمود ...

ركب هذا الانسان خصائصه وارتاد مجاهل الارض والسماء وامتدت أقدامه ومراكبه عبرهما في مجاهل الارض وتخوم السماء .. يقطع المراحل .. يزن .. يقيس .. يتابع ،، يستنتج ،، يتصور .. يحكم .، ثم يقرر مواصلة العمل والارتياد ـ مواصلة التعامل العلمي والعملي ، مع الكون كله ، ومع الانسان كله .

بهذا المنظار ، وعلى هذا المنوال ، عملت وتعاملت مع نجومي ، ومع كل الناس .. قررت ألا اكتفي في معاملتي مع نجومي بالمغازلة الطوباوية ، أرسلها بين يديها في متاهات الفضاء وأنا أتكمش في غطاء دافيء ، تحت سقف منقوش . قررت أن أبدأ التعامل مع نجومي بخطوات أخطوها على الارض في اتجاه مداراتها في مجاري الفلك .. خطوات متتابعة لا تفتأ تصاعد في استحثاث ملح وتصميم متشدد ، وفي كل الاحوال لا تخفق ارادة الانسان ، ولا تحبط جهوده .. فاما ان يصعد الى نجومه المجلوة في أفلاكها الدائرة ، واما ينزلها الى الارض، فتتسع خارطتها ومداراتها آنئذ باتساع أفق وارادة الانسان .. خاصة حينما يتعلق الامر بنجوم من النوع الذي يرتبط باشراقات الانسان وسعادته وطموحاته الانسانية على الارض .

9 ـ تتم عن طريقهما معا : طريق النص وطريق التبليغ السهل للانتشار، والطريقتان معا احداهما تؤدي الى الاخرى وتوطيء اليها .. ولكي تأخذ العلاقة بين الشاعر والجمهور وضعها الجدلي المتكامل ، لا بد في البداية أن يكون النص الشعري قابلا بذاته وخصائصه للانخراط في هذه العلاقة ، والانفتاح معها وفيها بفاعلية وتفاعل ، ولا يكون النص حاملا لهذه القابلية الا اذا توافر فيه عنصران :

احدهما : أن يكون لمحتواه الكلي انعكاس مباشر لهموم الجماهير وقضاياها القائمة ـ أي أن يحمل بذاته ، وحروفه ، وكلماته ، وموسيقاه طموحات هذه الجماهير ومشاغلها النابضة في قلب الحياة ، نابعة من التحمس الصادق ، والانغمار المتعمق في واقع الحياة .

ثانيهما : أن يكون الاسلوب الادائي « سهلا » مرنا مفتوحا في متناول الجمهور ، وتحت ادراكه ، تصويرا ولغة وتركيبا .

العنصر الاول ينفي الذاتيات ويلغي من دائرة الشعر ـ الذي يريد أن يكون للجماهير ويرتبط بها ـ العواطف المريضة ، والانسياحات الخيالية المغرقة ... وينفي العنصر الثاني التقعير والتغميض المعقد ، والتهويمات اللفظية التائهة بلا رابط ولا معنى ولا محتوى محدد ـ ربما ـ ولا مقصود .

وقديما وصف النقاد الشعر الناجح السيار بأنه « السهل الممتنع » ... السهل في الفهم وفي الادراك وفي التلقي والانتقال ـ والممتنع على كل أفاق

مترامي أن ينسج مثله ..

واذا انخرم العنصران في النص الشعري فقد معابره الى الجمهور ، وفقد قدرته على العبور الى عواطف الجمهور والى أحاسيسهم الدفينة ، وبقيت الكلمات أشباحا ميتة كالموميات ، لا تحرك ساكنا ، ولا تهيج عاطفة ، ولا تثير احساسا ... واذا توفر النص على كل الخصائص اللازمة للعبور الى الجماهير والسيولة الفنية في عواطفها وأنفاسها ـ تبقى الى جانبها سهولة انتشار النص وتبليغه الى أوسع الاوساط .. شرطا تكميليا لازما ليؤدي النص دوره، ويمارس رسالته ـ الى الجماهير وفي أحضانها ... وتظل النصوص الشعرية البليغة ـ السهلة الممتنعة ـ والتي لم تجد سبيلها الى الانتشار السهل ، والاتصال المباشر مع الجماهير التي لم تخلق الا من أجلها ، ولم تنبع الا من همومها ـ تظل كالورود الجميلة الطيبة الشذى ، لا قيمة لها ولا شأن ، ما دامت سجينة في دهليز مظلم ، أو مرصوصة في اناء مغلق ، لا تكسب روعتها الا وهي بين أيدي الناس ، وتحت بصر واحساس عشاقها .

سهولة الانتشار والوصول الى أوسع القواعد والهواة من الجمهور أمران متكاملان معا ، تستوي بهما معا جدلية الحياة وتكتمل علائق التفاعل مع الجماهير ، وتتمكن وتسمو روابط الدفع والتأثير في القوى الاجتماعية السائلة والمتمركزة في التاريخ .

كتابات الشعراء الشباب ، هي قبل كل شيء « انتاج أدبي » أفرزته المرحلة الحالية ، بظروفها وخصائصها الاجتماعية والسياسية ، فجاءت في شكلها ومحتواها تعبيرا عن المرحلة بكاملها ـ بسلبياتها وايجابياتها ، مثلما جاءت في طبيعتها التركيبية وبنياتها الفنية والاجتماعية مردودا مباشرا من المعقدات والاستلابات ـ أخذت وتأخذ بخناق حياتنا العامة ـ الفردية منها والجماعية ـ وانعكاسا متواصلا ـ في مستوى الكلمة ـ لما يسود هذه الحياة من ابتئاس وميوعة وزيف وتفكك وانخلاع .

لهذا اعتبر هذه الكتابات في عمومها ظاهرة اجتماعية ونفسية أكثر منها فنية ـ شعرية ، صورة عن الانخلاع الثقافي والاجتماعي الذي أفاض رذائله وسلبياته وموبقاته على مجموع العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية والفنية ، أي في المحيط الادبي كله ـ أي من الوجهة السوسيوثقافية . في علاقاتنا بالكلمة وطريقة استعمالها والتعامل معها ، ثم فهمها والوصول الى سرياتها وبواطنها .

ويجري تعاملي مع هذه الكتابات مجرى خاصا ، يعتمد على ركيزة واحدة ، هي منطلقي الاساسي في علاقتي مع الشعر الحديث كله والتعامل معه، وفي قراءته، ثم تقييمه والحكم عليه، ـ الركيزة هي : أن الشعر عطاء انساني، وقوة وجدانية يملك بها الانسان الشاعر أن يغوص الى الدلالات الخفية والجميلة في الحياة وفي الكون ، ثم ينقلنا اليها بواسطة تلبسه الفني الجميل بالكلمات،

واضفائه عليها شحنة من السمو والعبقرية والجاذبية السحرية . اذن :

1 ـ وجدان صادق للغوص في الحياة ، والحس في مطاويها بمعالم الحركة والسمو والجمـال .

2 ـ عمق انساني يتبطن حركة الفكر والوجدان ، يمنح حركـة الانسان وسلوكه وكلماته ، وعلاقاته كلها افقا صاعدا ، ومدلولا تحرريا ساميا .

3 ـ اداء سام ، وتعبير مشحون ، يضمن مستوى من الايقاع الموسيقي والجرس اللفظي المتناغم ، يوفر وحده فاعلية الكلمة وحيوية التلقي ، ويفرغ المقطوعة كلها في وحدة مغناطيسية متفاعلة ومتكاملة بجميع أجزائها وعناصرها الداخلة فيها شكلا وموضوعا ، تنتهي الى مستوى جاذب مـن سمـو الادراك وجمال القابلية والحس ، وقوة الجاذبية والتأثير .

اذا توافر للكتابة حد أدنى من هذه العناصر، في تفاعلها المثلث، وتكاملها العضوي ، فقد ملكت أن تكون شعرا ، وارتفعت الى مقام الفاعلية الاجتماعيـة والابداع الفني ، وتأهلت أن تمارس دورها في توطيد العلاقات الفنية السامية بين الناس ، وبين الناس والكلمات ـ كانت الكتابة في هذه الحالة مقولبـة بقوالب معينة أم لا .

ومن ثمة فأنا أصلا صديق الكتابات الشعرية الحديثة ، أحبها واقرأها ، وأتملى بكثير من التقدير والعطف ـ التحديدات اللفظية والمعنوية التي تأتي بها، أو تحاول أن تأتي بها، ثم آخذ النظرة الشخصية التي هي ملكي الخاص ازاء كل قطعة بعينها ـ استنادا الى الركيزة ـ المقاييس التي أشرت اليهـا ، وقبل هذه الركيزة وبعدها ، استنادا الى حاستي الذاتية الخاصة في التذوق والادراك والتصور ، ثم في الحكم والتصنيف بل هناك بعض القمم الفلائل في هذه الكتابات ، أعجبت بها أيما اعجاب ، وتشربت انتاجها البديع ، بل تأثرت به أبلغ تأثير ، وكانت أشعار البياتي ـ بصفة خاصة ـ وصلاح عبد الصبور ، وعبد المعطي حجازي ، ومحمود درويش ، والفيتوري ، هي القمـم العربيـة التي حببت الى الشعر الحديث ، وعمقت نفوذه في قلبي ، وأغرتني بالنسيـج على منواله ، وانتجت بالفعل الشيء الكثير على هذا المنوال (وبالمناسبة لي قصيدة ـ تحية خاصة لشعر عبد الوهاب البياتي أعلن فيها اكباري وحبي لشعره ، وتأثري بروائعه ، بعنوان فنجان حب وقهوة لعبد الوهاب البياتي) .

II ـ أجل . ان الكتابة النثرية ـ غير الدراسة ـ هي أيضا بعض **هواياتي**، لكن الهوايات كلها اثقل من أن تنوء بها القدمان أو يتسع لها الزمـان ـ أو تسمح الظروف العسيرة لها بممارسة، أو تفتيت ما عسى أن تذخره من امكانات اصالحهـا .

سبق في وقت ما ، أن كان لي ولع بقراءة القصص ، مثلما سبقت لـي محاولات متعددة ـ منذ زمن قديم ـ في كتابة القصة القصيرة ، ضاع البعض منها مع تفتيشات البوليس ، ولا يزال البعض منها تحت اليد ، ولكنني غير

راض عليها ، ولا أرى فيها ما يدعو الى الاهتمام بها ، ولذلك يبدو أن هذه المحاولات لم تكلل بالنجاح ، كما أنها لم تستطع أن تبعث في نفسي طاقة للتواصل والاستمرار ، ومن ثمة يمكن اعتبارها فاشلة ، وغير موجودة .

على أنه تمخض عندي رأي شخصي خاص ، مع السنوات الاخيرة ، في موضوع القصة وفي كتابتها على العموم ـ مجمله : أن القصص هي نوع أدبي، يعتمد بالدرجة الاولى الامتاع الفني ـ الجمالي، في حالة السرد، أما من الناحية الموضوعية أو الغائية ، فان الفكرة الاجتماعية أو السياسية أو الانتقادية التي تحتويها القصة ، وتريد في خاتمة المطاف أن تؤديها ، قد يمكن في غير القصة أن تؤدى ببضعة جمل أو بضعة أسطر أو بمقطع من قصيدة (أسلوب مكثف).. ولكن في القصة ، وفي أسلوبها المسترخي الواسع ، قد لا تستطيع أن تخرج بهذه الفكرة وتحصل عليها الا من خلال ـ وبعد عشرة فصول (!) أي عشرات أو مئات الصفحات في بعض الاحوال .

على أنني في السنوات الاخيرة ، وبالذات سنة 1974، وأنا بين جدران السجن المركزي بالقنيطرة ، قمت بأول تجربة واسعة وجادة في ميدان القصة ، فيها شيء من الجد والمضاء ، فكتبت قصة طويلة ، اخترت لها هذه المرة ـ وكأس فني ـ أسطورة شعبية قديمة ، تتداولها الاوساط البربرية من سكان مناطق الجنوب ـ الجبلية منها بصفة خاصة ـ يعرفونها باسم «حمو أونامير» (أو احماد أونامير) ، نظمها العديد من الشعراء البربر (الشلوح ـ الروايس) في قصائد على شكل قصة أو ملحمة غرامية موغلة في الاثارة الخيالية والحب المتورط العنيف .

كان قصدي من اختيار هذه الاسطورة هو اعتمادها كوسيلة فنية لوصف حياة سكان البادية المغربية ـ خاصة منها المناطق الجبلية ، والتي تكتنز كثيرا من الخصائص النفسية ، والفضائل الاجتماعية والسياسية ، وتمتاز بصفاء خاص ، ونظافة في « العقيدة » والسلوك والعلاقات العامة والخاصة ، مع الحرص على ابراز الكثير من العوائد والتقاليد الاجتماعية والنفسية والفكرية للشباب والكهول والشيوخ في هذه المناطق بالذات وخاصة الفتيات .. امتدت بي القصة هذه الى أكثر من 400 صفحة ، بقي فصلها الاخير الى الان ، دون أن تسمح ظروف ما بعد خروجي من السجن من اتمامه الى الآن .

أما عن المسرح ، فكانت تجاربي فيه محدودة وقديمة ، كتبت مسرحيات متعددة في الاطار المدرسي كان يمثلها تلاميذ المدرسة ، عندما كنت مدبرا لمدارس حرة قبل الاستقلال في كل من مراكش وأكادير والدار البيضاء ، كانت دائما تختتم السنة الدراسية، كل سنة بحفل عمومي ضخم تقدم فيه تمثيليات بالفصحى أو الدارجة ، وأذكر من بين هذه المسرحيات التي كتبتها : « المعتمد بن عباد ـ يوسف بن تاشفين ـ محمد بن عبد الله ـ ـ المهدي بن تومرت ـ الطبيب المريض » وكانت هذه المسرحيات تقدم ـ لا كمجرد عمل

ترفيهي ، وانما . لاهداف وطنية سياسية حية ولذلك كان يحضرها جمهور غفير من المواطنين وكان لها دور هام في رفع الوعي والحماس الوطنيين في أوساط الجماهير الشعبية من السكان خاصة في أكادير

وكانت تجربتي الاولى والاخيرة مع مسرح الهواة ـ أو بالاولى محاولة ـ هي مسرحية « يوسف بن تاشفين » التي كتبت منها عدة فصول باقتراح من فرقة « الكوميديا المراكشية » سنة 1968 ، لتقوم بتشخيصها ، ولكن اعتقالي حينذاك حال دون اتمامها ، كما حال بالتالي دون تشخيصها ، وكانت هي آخر عهدي بالمحاولات المسرحية .

أنجز الحديث : **أحمد لمسيح**